صباح الربيعي

القطار الاخير .. الحمامة الأخيرة

كان الغبار الرمادي يلف المحطة فيتسرب الى داخلك حزن بطيء. النجات الى خلف القمارة الخشبية حيث تبـــاع المرطبات واللبان والاقراص المهدئه . افترشت مستطيل الارض الذي يفصل بين ظهـر القمارة الخشبية والحائط القديم للمحطة .

اشجار اليوكاليبتوس مثقلة بالغبار وممتدة على الجهة المقابلـة للرصيف كشريط قاتم لغابة كثيفة . اتعبك الانزلاق المتواصل بيـن المسافرين . وانت ترقب العيـون المتناثرة حولك .. صار طوافك بين القامات المديدة والقصيرة متعبا .

فكرت .. لو كان بامكانك ان تتوارى .

لملمت نفسك ، انحشرت بين عربات الحمالين الحديد .. الرائحة الاتية .. المحملة برزم برية لا تعرف عنهـا شيئا .. ملفوفة بقمـاش ابيض واسمر . مليئة بالكتابات والاختام والطوابع والخطوط المتقاطعة.

اتجهت صوب حنفية المحطة .. لتبل ريقك المشحون بطعم الغبار. فوق الحنفية ذات الفم الواسع ثمة لوحة حديد مصبوغة بلون رصاصي. مكتوب عليهـا بخط رديء : (ماء للشرب) . تصعـد ببطء على حافة حوض الحنفية المربع الشكل ،تجلس فوقهـا على ركبتيك الواهنتيـن غيـر آبه باحتكاك سروالك فوق الطابوق .. تمد كفك الى مفتـاح الحنفية ، بينمـا تذهب الكف الاخرى الى داخـل قميصك الازرق المخطط ، وبعد ان تعالج الزرين العلويين تمسك بالحمامة ، تخرجها برفق شديد ، تمد باطـن كفك اليمنى الى فم الحنفية المفتوح ،حيث يتدفق الماء الذي يبعث ارتطامه بالارضية الاسفلتية للحوض صوتـا متواصلا مسموعا . بعـد ان تمتليء كفك بالماء تقربها من الحمامة . لكنهـا .. وبيـن خوف الاختناق وثقل الغبار تدير رقبتها الى الجهـة الاخرى .. يتسرب الماء من بيـن فتحات اصابعـك الصغيرة التي لا تستطيع الاحتفاظ به لمدة طويلة . تحاول مرة اخرى وثالثة ، لكنهـا ترفض في كل مرة ، بل ، وترسم خطا حادا من الدم على باطن كفك ، فيمتزج الدم مـع الماء .. لا تعبأ . تنحني على رقبتها الناعمة .. الملساء .. تقبلهـا قبلتين وتنفض يدك بمـا فيهـا الى جوف الحوض .. وانت تنهض .. « من غيـر المعقول ان لا تشرب . خصوصا وقد مر وقت طويـل منذ غادرنـا البيت في الظهيرة ».

وقبل ان يهبط عليك حلم طارىء ..

« أنا اصغـر اخوتي .. ملامح الغضب تميز وجه ابي . كانـوا يدعونني بآخـر العنقود . فف ! كنت عائمـا في جو كئيب مشحون بفوضى غامرة . كان الجميع يمارس تعليمي وتهذيبي وافسادي ايضا .. كنت سأصير نسخـة لاي واحد منهم . كان بيتنـا قديمـا وضيقا ، تملاه الحشرات الغريبة والجرذان التي كانت تقاسمنـا فيه . جدرانه محشوة بالصفائح المعدنية الصدئة .وبقايا الخشب التالف المتآكل بفعـل (الارضه) اضافة الى جريد النخل المقطع . الرطوبة فيـه تحمل لنا امراضـا لا يعرفهـا غيرنـا .

وسط الحوش حوض من الطابوق المربع الشكل والمرصوف من غير عناية . يرتفع من وسط احد اضلاعه انبوب الماء تعلوه حنفية صغيرة لا يمكـن احكام اغلاقها . كان تنقيطهـا الدائم يبعث فينا الضيق الذي اعتدنـا عليه فيمـا بعد . في قعـر الحـــوض نمت بعض الاشنات الخضراء .

كان ابي لا يمارس في الحقيقة الا عمـلا واحدا : التأديب ! ومـع هذا كنت اشعـر احيانـا بالاشفاق عليه .

كما ان لي عمة فقدت بصرهـا فجاة منذ سبع سنوات ، تسكن في غرفـة ضيقـة ، منزوعـة الباب في سطح البيت . على جانبها الايسر برج صغير للحمام تعلوه خشبة ناتئة عن الجدار عليها فانوس نفطي قديم نستعمله عند الحاجـة .

في هذا البيت المرتبك ترعرعت . وجدت نفسي مهموما ومحبطا. لم اتعلم ان يهتم به احد ، ولا ان اهتم بالاخرين ومن غير المعقول ان تمضي حياتي على هذا الشكل المنحرف بي الى قاع معتم » .

من تحت القميص الازرق القلم ارتجفت الحمامة مذعورة حينمـا امتلأ المكان بصفيـر القطار المتقطع . مددت يدك اليها . تبحث فيهـا الاطمئنان .. وتطرد عنهـا الفزع . « اللعنـة على غبار كهذا ».

وانت بالقرب من حنفية الماء ، فكرت في الخطوة التالية .اندفعت وسط سيل من الجنـود القادمين من البوابة العريضـة للمحطـة والمتجهين نحـو احدى عربات الدرجـة الثالثة المربوطة الى الماكنةتماما.

كـانوا متربين ، وكأنهم قادمون من جوف الصحراء . معاطفهم خشنة كالحـة لا يبيـن منهـا سوى ازرارهـا المعدنيـة اللامعة . يحتذون ذلك النـوع السميك من الاحذية الجلديـة المليئـه بالمسامير. فوق رؤوسهم الحليقـة تقعـد خوذ حديد مرقطه باللونيـن الاخضر الداكـن والاصفر الباهت . سحناتهم توحي بان لا وقت لديهم للاهتمام بانفسهم .. يحمل كل منهم الى جنبه حقيبة من الجلد المتيبس .

كانوا قادميـن من جبهـة الرماد .. تحملهم انفاس لاهثة متعبة . عيون زائغة متوترة تمتد فوق كل شيء بلا هـدف . اندفاعهم الـى جوف العربة ، ارتفاع اصوات ارتطام احذيتهم بارض المحطة الاسفلتية بعث فيك اعتقادا بان هؤلاء الجنود يلفهم ارتباك ما .

انحشرت بينهم . لم تكترث للفوضى التـي صرت داخلها . كنت تفكر فقط بالحمامة وهي لصق صدرك كلوح مكتوب ..

كنت تربط الحمامة بخيط رفيع لففته بعناية حول احدى رجليها بينمـا شددت الطرف الاخر حول رقبتك . « منذ عام .. وانت تحلم بمثل هـذا الهرب » .

اصوات الجنود في الداخل تختلط بشكل عابث ، كانوا جميعـا يتكلمون في وقت واحد : (لو اعرف .. لو اعرف فقط ــ الى اين ــ هل لديك سيجارة ــ اعتقد ان والدتي قد ماتت ، لقـد تركتهـا مريضة ــ بوسطالي ــ من رأي بوسطالي احمد ــ خضير ــ ابو خليل ...) .

وسط هذا العالم ، كنت تحس باستلاب حقيقي ، وبدوار بدا ينسل الى رأسك وامتد الى عينيك كخدر بارد ، وكنت تشعر بصعوبة التنفس .

« ايتها اللعينة .. سأظل معك الى النهاية . لن ادع احدا يؤذيك ، لا عليك برائحة الجنود الحامضة .. عندما يتحرك القطار سيتبدل الهواء ويتغير كل شيء » .

كان الجنود ينحشرون في الداخل .. كل ثلاثة على مقعد . بعضهم كان يستفيد من الممر الضيق الطويل او الفسحة التي بالقرب من الباب ، بينما تمدد اخرون فوق الرفوف المعدنية المشبكة بشرائط متساوية الحجم من الحديد والخشب جنبا الى جنب مع الحقائب العديـدة . والخوذ المرقطة والاحزمة العسكرية المعروفة . كانت الرؤوس الحليقة تتحـرك باستمرار ، وكنت تشعر بان عشرات العيون تحدق فيك .. تبحث عنك .

العربة من الداخل تمتد طويلة كأنها تابوت متحرك محشو باجساد متراصة الى مصير غير معروف .

من زجاج النوافذ على جانبي العربة كنت تلمح اقتراب الليل .

صفير الماكنه من الخارج يتلاشى وسط الضجيج المتزايد في الداخل.

تمددت بين الاقدام الحديد المتدلية للجنود . حشرت نفسك تحت احد المقاعد بالقرب من الباب . كان يجلس فوقها ثلاثة جنود ، احدهم كانت لديه ربابة اسندها الى الجدار الداخلي للعربة، كان وتر الربابة

الوحيد بالقرب من عينيك تكورت على نفسك ، فيما كانت الروائح العفنة تزداد كثافة في الداخل . شعرت بحنوك يزداد . فالحمامة لم تعد تخفي تذمرها محاولة التخلص من الخيط المربوط الى رجلها .. والذي خلف حزا في رقبتك . كنت تشعر به ولا تدرك . كنت والحمامة الى صدرك لا تدرك بشيء .

تذكرت كيف ان عمتك الضريرة كانت قد قصت عليك ذات ليلـة حكاية الحمامة التي كانت تبحث عن أختها في مدينة الحلة . وكيف ان الحكاية ومنذ ذلك الوقت مغروسة في ذاكرتك . سقطت من يـد احد الجنود الجالسين فوقك قطعه من صمون أسمر يابس كأنه حجر . انتظرت برهه . ولما لم تمد اليها يد .. التقطتها بحذر .. حاولـت تفتيتها .. وضعتها في فمك ، مضغتها جيدا ، جيدا .. صارت كعجينة قربت الحمامة من فمك . تناولت من هناك شيئاً من الصمون الليل . كررت العملية عدة مرات كنت تشعر بالزهو وانت تنظر الى عينـي حمامتك الوديعة ، تراقبها وهي تلتقط من فمك وتود لو ان لك جناحين تطير بهما معها الى فردوس أخضر يمتد .. ويمتد الى آفاق لا حـدود لهـا .

كان القطار ذاهبا الى السماوة . عرفت ذلك من حوار الجنود واحد باعة الشاي المتنقلين ما بين العربات وهم يحملون اقداح الشاي والاواني المعدنية التي يستخدمونها للسكر . كانا اثنين .. الاول يدير الشاي بالاقداح لمن يرغب . وصاحبه يجمع الاقداح الفارغة . كانا لا يعبآن بمرور القطار السريع بين المحطات . اصواتهـم وهـم ينادون بالشاي تبدو مألوفة.امامك تتدلى اقدام الجنود تنت منها روائح امتزاج العرق بالتراب . كان احتضانك الحمامة يوفر لك فرحا مديدا .. أغلق كل النوافذ المعتمة التي كنت تطل منها على حياتك،فكرت ان تداعبها، وكانت منشغلة بنفش ريشها الناعم . واكتفيت بان وضعت خدك على راحة كفك التي اسندتها الى الارض الباردة للعربة . وكان الفرح يورق ما بين عينيك ارتياحا لا حد له .

كان الجنود فوقك منشغلين بلغط متداخل :

ــ منذ متى وانت لم تلمس أمرأة ؟

ــ اذا بقينا على هذه الحال ، فسوف نموت من التعب .

ــ أقول لك منذ متى وانت لم تلمس ...

ــ قالوا لي هذا الصباح بأني حمار ، هه .. تصور أنا حمار .

ــ يبدو انك جائع .

ــ تف عليك ، يا لك من ملحاح .

ويمضي الوقت داخل العربة ، التي لم يتوقف اهتزازهـــا ، استغرق معظم الجنود في نوم مصحـوب بشخير يبعث عـلى الضيق . وشعرت بان لهؤلاء الجنود هموما متوحدة .

التفت الى حمامتك ، كانت قد استسلمت هي الاخرى للنوم بلا شخيـر ...

اسدلت جفنيها الى الاسفل .. اسندت رأسها الصغير الى وجه الربابة الاملس التي يبدو ان صاحبها يحملها هدية الى اهله .

مددت اصبعك تتلمس الخيط المربوط الى رجلها ، ولما تأكدت من انه لم يؤذها ابتسمت .. وجدت نفسك مزروعا باحلام خضراء تنمو سريعا لتملأك سرورا حقيقيا في عينيك .. تتجمع لحظات متناثرة من الفرح الغامر تورق بكل الاماني الحبيبة التي كنت تحلم بها منذ زمن..

سرت اليك رغبة في الضحك بصوت عال .. شعور طفح اليك من الداخل ، لم تملك الا ان تستجيب له .. ضحكت فعلا .. امتلأت حنجرتك بالفرح . صار صوتك فوق الرؤوس الغافية و ..

ــ هش .. نريد ان ننام .

وانكسرت ! كانت اصابع الليل تمتد الى كل شيء ثقيلة كثيفة . تكورت . صرت على شكل نصف قوس بداخله كانت الحمامة تنظر اليك بعينين فضيتين .

كان القطار يواصل اندفاعه في طريقه المرسوم غير آبه بما يجري في جوفه وكان خوفك يتصاعد وفكرت ان هذه العربة اللعينة لم تعـد تصلح لوجودك . حملت الحمامة اعدتها الى داخل قميصك مجدداً .

نهضت بحذر شديد . حدقت في الاجساد الخالية . كانوا مستغرقين في نومهم ، ولم تكن تعرف من آين جاءك الصوت . رؤوس الجنـود ملقاة على بعضها . أعقاب السجاير فوق ارضية العربه . حملت ساقيك الواهنتين الى الاتجاه المعاكس لسير القطار .. تقودك نظراتك المتحفزة المتوترة . كنت تخشى ان توقظ آيا منهم . ولما وصلت الى القاطـع الذي يفصل عربة الجنود عن التي بعدها وجدت ان صوت احتكـاك عجلات القطار بالسكة الحديد كان مروعا .. وكنت تخشى على حمامتك الفـزع .

اندفعت بالدخول الى العربة التالية

اناس مختلفو الملامح .. لا يشبهون اولئك الذين كنت بينهم ، نساء واطفال واولاد في عمرك .. كان بعضهم يقرأ في الصحف بينما كان غيرهم يضعها على عينيه حاجبا عنها النور المتدلي علـى امتـداد الشريط الضوئي الملتصق الى سقف العربة .. والمترسبة في داخله بعض الحشرات الصغيرة الميتة ..

ــ بابا .. أريد الحمامة .

وكان رأسها قد برز من الفتحة التي بين الزرين العلويين من قميصك . رمقت الطفل بنظرة حاقدة .. غاضبة .

قال رجل يبدو نظيفا ووقورا يجلس الى جانب الطفل .

ــ هـل تبيعها ؟

ــ لا

بكى الطفل

ــ بابا .. اريدها

قلت لا ..

واندفعت عائدا الى عربة الجنود تحتضن حمامتك ، وتركت خلفك شريطا من بكاء الطفل في القاطع الذي يفصل ما بين العربتين ، وقفت. كان القطار حينها قد خفف من سرعته . ربما كان سيتزود بالماء مـن احدى المحطات الكثيرة التي يمر بها .

ما بين العربتين .. شعرت بانك محاصر . تفكر في خلاص ما .. لحظات وصرّت عجلات القطار ارتجت العربات ، فتوقف تماما .

حاولت آن تفتح الباب ، كان قويا وثقيلا ، وكنت تسند الحمامة باحدى يديك .. استطعت في النهاية ان تفتحه نصف انفتاحة ، تسرب الى وجهك هواء بارد . سقط الرأس المدور الصغير الى المقبض الحديد للباب المفتوح الى الداخل فيما كنت تعالجه . سالت قطرات من الدم الى ما بين خصلات شعرك المتدلية على عينيك ، لم تبال .

كانت الرياح في الخارج ساكنة ، وكنت ساهما ، رفعت رأسك وانت واقف على سلم الباب . كانت أشجار النخيل تمتد الى اكثر من مكان .. تتناثر حول البيوت الطينية الكثيرة ومن كوى صغيرة فيها كنت ترى نورا باهتا لمصابيح جف زيتها . ما بين البيوت كانت ترتفع الاعمدة الشاحبة ، تعلوها اضوية خافتة كأنها شموع ازليه .

الى جانب بعض البيوت تقف خيول وبقرات ، بعضها مستلق على الارض ، وكلاب تبحث عن طعام يلقي به المسافرون من النوافذ .

كانت السماء صافية ، وكان القمر مضيئا كما لم تلاحظه من قبل.

في الاعالي .. تمرق اسراب من الطيور يجمعها شكل قوس تطير باتجاه واحد وتختفي اذ ترتفع صوب النجوم .

كنت تحاول ان تفكر .

بعض الصبية ، كانوا يتراكضون حفاة ، وهم يضحكون ، تابعتهم بنظراتك ، كانوا لا يعبأون بالقطار الواقف . واختفوا خلف البيوت الطينية ، بينما بقيت ضحكاتهم في خاطرك .. اخرجت حمامتك من بين قميصك ، نظرت اليها بحنو بالغ . قبلتها .. ناغيتها . وكنت تمسك بها بكلتا يديك اللتين رفعتهما الى الاعلى ، وعيناك كانتا على الحمامة. لمحت من خلالها السماء الصافية .. فتحت كفيك اطلقتها . اندفعت وراء السرب في الاعالي ، ارتفعت معها . كانت تبتعد .. وكنت تجري ورأسك مرتفع نحوها ، واختفيتما معا ...

البصرة